الإسلامُ والمنعرجُ التأويليُّ

عبد اللهَّ السيد ولد أباه(*)

في الحقيقةِ كنتُ أودُّ لهذه المداخلةِ عُنوانًا فيه بعض الاستفزازِ، كان بوُدِّي أن أقولَ عنوانًا لهذه المداخلة: «الخروج من نموذجِ التفسيرِ لنموذج التأويلِ»، وأنا مدركٌ للحساسياتِ التي ترتبطُ بهذا العنوانِ، وما يرتبط بالتفسيرِ والتأويلِ على الأقلِّ في المرجعيةِ الإسلاميةِ.

ولكنَّ المهمَّ هو الفكرة بذاتِها، فمن السهلِ أن نقدمَ تأويلًا للنصوص التي تُبيِّنُ أن الدياناتِ السماويةَ كلَّها دياناتُ سلامٍ، والنصوصِ أيضًا التي تزعمُ أو تُوهِمُ أن هذهِ الدياناتِ دياناتُ سلاحٍ وقتلٍ وحربٍ، ولكن هذه النصوص غيرُ مهمةٍ وغير مفيدةٍ، ولا أودُّ أن تكونَ المقدمةُ لاهوتيةً طويلةً، لكن أكتفي بأن هذه التأويلاتِ تلتقي في أربعِ مكوِّناتٍ أساسيةٍ، وهذه المكوناتُ تحددُ ماهيةَ التأويلاتِ والمعيارِ الذي تعتمدُ عليه.

فهناك عقيدةُ الخلقِ، وهناك مركزيةُ النصِّ، وهناكَ عقيدةُ الجزاءِ، وهناك فكرةُ الردعِ، وهي فكرةٌ أساسيةٌ في مُختلِفِ الأديانِ.

طبعًا الأديانُ كلها أديانٌ توحيديةٌ، ولكنها تختلفُ في المفاهيمِ الأربعةِ السابقةِ، ولكن أذكرُ فقط أن فكرة الإله المطلق، هي التي بَلوَرَت فيما بعد فكرةَ الحرية؛ لأن الأديانَ لم تتناول فكرةَ الحريةِ بشكلٍ مطلقٍ، كما أن عقيدةَ الجزاءِ الأخرويةِ هي فكرةٌ تاريخيةٌ، وترتبط بالوعي البشريِّ.

ما أريد أن أُركِّزَ عليه هو إشكاليةٌ واحدةٌ؛ وهي أن جميعَ الأديانِ السماويةِ الثلاثة، تحدثت عن الإله الواحدِ المخالفِ للبشر المطلقِ القُدراتِ، وأن هذا الإلهَ المطلقَ تكلمَ إلى البشرِ، وبالتالي فنحن أمامَ مفارقةٍ كبيرةٍ، فهذا الإله المطلق تكلمَ إلى البشرِ الذين لا يعلمون عنه شيئًا، ولا يُحيطون بشيءٍ من صفاتِه، هذا الإلهُ تحدث إلى البشرِ بلغةِ البشرِ، وبمعرفةِ البشرِ، ويعرفُ تاريخَ ومستقبلَ البشرِ وقلوبَهم وأفكارَهم، وهذا يَعني إشكالًا كبيرًا.

فنحن أمام موقفَين مختلفَين؛ فإما أن نقولَ إن هذا الكلامَ يجبُ أن نفهَمَه ونؤصِّلَه بحسَبِ ما أراد الإلهُ نفسُه، أي أن نتماهى مع الخطابِ الأصلي، أو المعنى الأصلي، واعتقادي أن هذا وَهمٌ من الناحيةِ العَقَديةِ ومن الناحيةِ التأويليةِ؛ فهو من الناحية العَقَديةِ يقتضي الإحاطةَ بالإله وبما يُريد، وفي اعتقادي أن هذا القولَ من الصعب الدفاعُ عنه عَقَديًّا، ومن الناحية التأويلية فقد أصبح من الواضحِ أن النصَّ لا يُمكنه أن يستعيدَ سياقه الأصلي، وأن القارئَ يُساهمُ في إنتاجِ هذا النصِّ، وأن النصَّ بقدر ما هو يكشفُ لنا عن العالمِ الأصليِّ، فهو يكشفُ لنا عن عالمٍ جديدٍ، بمعنًى آخَرَ فنحن نُساهمُ في إنتاج هذا النصِّ.

في رأيي أنه إذا أردنا أن نخرجَ من حربِ النصوصِ، يجب أن نقرأَ هذه النصوصَ، لا باعتبارِها نصوصًا يجب أن نُحيط بسياقِها الأصلي، وإنما يجب أن نَرجِعَ إلى الإشكالِ العَقَديِّ الحقيقيِّ؛ أي ما يريد أن يقولَه هذا الإلهُ المطلقُ للبشرِ في لحظةٍ محددةٍ، عندئذ نُصبح نحن أُمَناءَ على هذا النصِّ الذي تلقَّيناه اليوم حسَبَ توقعاتِنا

وبحسَبِ اهتماماتِنا وسياقاتنا، بمعنًى آخَرَ فإن عَلاقتنا بالدينِ تُصبحُ عَلاقةً مفتوحةً، فنحن الأُمَناءَ على هذا النصِّ، وبالتالي فنحن أمام مَهمَّةٍ تاريخيةٍ كبرى؛ أن ندركَ سياسةَ التعايشِ والتضامنِ والوَحدةِ بين مُختلِفِ الدياناتِ، لا على أساسِ ما فَهِمَهُ السابقونَ من هذه النصوصِ في مراحلَ معينةٍ كان الأساسُ فيها هو الصراعَ الدينيَّ، وإنما نفهمُها انطلاقًا من سياقِنا الحاليِّ، انطلاقًا مما يريدُه منا هذا النصُّ، وانطلاقًا من المشكلةِ التاريخيةِ التي نحن فيها الآنَ، ونخرجُ فيها من صراعِ التفسيرِ إلى صراعِ التأويلِ، وذلك بعقولٍ مفتوحةٍ، من أجلِ معرفةِ ما هي الأُفُقُ التي نسعى ونودُّ أن نعيشَ فيها مستقبلًا.

لذا فأنا أدعو إلى تجاوز نموذج «التفسيرِ النَّصِّيِّ» في أدبياتِ الحوار الدينيِّ التي تقوم عادةً على «حرب النصوص»، وتبنِّي «النموذج التأويلي»، الذي يخرج من وهم انغلاق النصِّ في سياقه اللغوي الحرفي وسياق تلقيه التاريخي.

وعلى الرَّغم من عُمق وكثافة التراث التأويلي في التقليد الإسلامي، فإن الجهود التي بُذلت في السنوات الأخيرة في مسار تأويلية النص الديني لا تزالُ ضعيفة ضئيلة بالمقارنة مع التأويلية المسيحية في شقيها البروتستانتي -وهو الأهم- والكاثوليكيِّ.

ما يُلاحظ مؤخرًا هو اتِّساعُ حركة ترجمة الأدبيات التأويلية الفلسفية الغربية إلى اللغة العربية -خصوصًا أعمالَ غدامير وريكور وإلى حدٍّ أقلَّ لفيناس- التي

واكبتها محاولاتٌ متعثرةٌ في غالب الأحيان لنقل أدواتها المنهجية إلى الحقل الإسلاميِّ.

ما بدا لي أن المطلوب هو بلورةُ عُدَّةٍ منهجيةٍ تتناسب وطبيعةَ التقليد التأويلي الإسلامي، في مقابل النموذجين الكبيرين في التأويلية الراهنة: النموذج اليهودي الذي يركِّز على الكتابة في سمات الأثر والغياب والتشتُّت، بما يرجع إلى لاهوت الاحتجاب والمغايرة والاصطفاء، والنموذج المسيحي الذي يركِّز على الكلام المرسَل، بما يُحيل إلى سمات الإرادة والذاتية والاعتراف في سياق لاهوت التجسُّدِ. في التقليد الإسلامي يُمكن أن نميز بين مسلكين تأويليين مترابطين، يُمكن أن نُعبِّرَ عنهما بتأويلية الرواية وتأويلية الخطاب؛ تأويلية الرواية تتعلق بالأبعاد السردية في النصِّ المنزل الذي يربط بين المعنى وسياق تشكله زمنًا ومثالًا، الزمن بأبعاده المتنوعة في الماضي الوجودي ما قبل التاريخي وفي المراحل المحورية في تاريخ الإنسانية -زمن النبوة والرسالة- وفي حاضر الرسالة الخاتمة -أسباب النزول بلغة علوم القرآن- انتهاءً بزمن الانتظار، الذي هزَّ أُفُقَ العدالة الإلهية المطلقة، والمثال من حيث هو من أدوات البيان والإبلاغ الذي يتجاوزُ الأشكال البلاغية المعروفة ليُحيل إلى عالمٍ وجودي كامل، أَطلَقَ عليه «هنري كوربان» تسمية «عالم المثال»، استنادًا للأدبيات الصوفية التي تجعله عالمًا ثالثًا مستقلًّا عن الواقعِ والخيالِ.

أهميةُ تأويلية الرواية هو أنها تُخرِجُ النص من أبعاده اللغويةِ المنطقيةِ الضيقةِ؛ لتكشفَ عنه في مساراته الزمنية والتاريخية الحاسمة في إدراك معانيه وتنزيل دلالاته، ومن هنا نُدرك المساحة الواسعة التي يُخصِّصُها القرآنُ الكريمُ للقصص والأمثلة المضروبة للتقريب والاعتبار والتوجيه، وهي أبعاد يتعين استكشافُ آفاقها التأويلية الرَّحبة بدلَ التعامل معها، إما بمنطق البحث التاريخي التقليدي -على طريق اللجوء إلى ما يُطلَقُ عليه الإسرائيلياتُ في كتابات المفسرين- أو بمنطق التفسير البلاغي، الذي يَنزِعُ إلى إرجاع الأمثال القرآنية إلى المستوى الوصفي الأولي في اللغةِ.

أما تأويلية الخطاب، فتجمع بين بُعدَي المخاطبة والنص في الرسالة: المخاطبة بمعنى تجرِبة الوحي الإلهي إلى الخلق الذي لا ينحصر في رسالات الأنبياء، وإنما هو شامل من المنظور القرآني إلى مُختلِفِ المخلوقات الطبيعية والحية، بما يُفسح المجال أمام استكشاف دَلالات التجلي الإلهي الواسعة التي تتجاوز اللغة، وتحول الطبيعة والوجود إلى آياتٍ للفهمِ والنظرِ.

أما النصُّ فهو المستوى المكتوب الذي يختلفُ عن النموذج «اللوحي» اليهودي -من اللوح الحامل للشرائع المنزلة- وعن النموذج المسيحي للكلام بصفته مجسَّدًا في وعيٍ بشريٍّ ذاتيٍّ.

الخطابُ من منظور التأويلية الإسلامية هو آياتٌ إلهيةٌ منزلةٌ للبشر، فلذا ليس هو كلام اللهَّ المادي المباشر؛ لأن الخطاب الإلهي لا يكونُ إلا من وراء حجاب، ومن

هنا ميَّزَ المتكلمون بين الكلام الذاتي والكلام المخلوق، أو الكلام النفسي والكلام اللفظي، كما أنه وإن كان موجهًا للبشر، فإن مصدره الإلهي يمنعُ إحاطة البشر بدَلالته وفهمه، فهو نص متسع «حمال أوجه»، كما كان يقول الإمام عليٌّ كرم اللهَّ وجهه، وقد «نزل ولا يزال يتنزل» كما يقول الإمام زرُّوق.

ومن هنا فإن السياق الإسلامي يتمحورُ حول تأويلية الجماعة؛ أي ارتباط المعنى بالمجال التداولي المشترك في تفاعله وتحاوره بدلًا من الوعي الذاتي، الذي يحملُ عادةً دَلالاتِ الإبداع النقدي، في حين أنه من وجه آخر يُفضي إلى إفقار النص بإلغاء أبعاد الاختلاف والتنوع التي يتضمَّنُها التقليد بدلًا من النظر إليه دومًا كسلطةٍ مُعيقةٍ ومقيَّدةٍ.